الفصل السادس

مشاكل الدفاع

obeikandl.com

obeikandl.com

مشاكل الدفاع:

في هذا الوقت من صيف عام ١٩٤٠ ، أصبحنا منفردين تمامًا بعد هزيمة فرنسا ، ولم يكن في إمكان دول «الدمنيونات» أو الهند أو المستعمرات أن تمدنا بالمساعدات اللازمة التي كنا في أشد الحاجة لها ، وكانت الجيوش الألمانية الضخمة المتصرة المدربة والتي توفر لديها السلاح الاحتياطي الضخم ، والمستودعات والمصانع التي غنمتها بكل بساطة ، أخذت هذه الجيوش تستعد للمعركة الفاصلة .

أما إيطاليا فوقفت بقواتها الكثيفة الجرارة ، بعد أن أعلنت علينا الحرب، تبحث في شوق عن طريقة لتدميرنا في البحر المتوسط ومصر .

كذلك وقفت اليابان في الشرق الأقصى تنظر إلينا نظرة غريبة يتعذر علينا تفسيرها وتطالبنا في إلحاح وتهديد إغلاق طريق بورما في وجه المساعدات إلى الصين ، كما كانت روسيا تقدم إلى هتلر مساعدات هامة من المواد الأولية ...

أما إسبانيا التي احتلت منطقة طنجة الدولية ، فقد تغدر بنا بين آونة وأخرى وتطالبنا بجبل طارق وربما استنجدت بألمانيا لمساعدتها في احتلاله أو في إقامة بطاريات المدفعية الهائلة لتطويق أسطولنا عبر المضيق ، وفي هذا الوقت كانت الحكومة الفرنسية التي أصبح بيتان رئيسًا لها ، قد انتقلت إلى فيشي ، وأصبح من المنتظر بين لحظة وأخرى أن تعلن الحرب علينا بعد أن أصبحت ميالة إلى فكرة أوروبا النازية ، كذلك أصبح الأسطول الفرنسي في قبضة الألمان في طولون، وهكذا وجدنا أننا لسنا في حاجة إلى المزيد من الأعداء .

ومع أن معنوياتنا لم تضعف ، إلا أن السؤال الذي ظل يراودنا هو : كيف يمكن لنا أن نجتاز هذه الصعوبات القائمة ؟ لقد كان من المعروف أن جيشنا في الوطن لا يحمل سلاحًا أكثر من البنادق، وستمضي فترة من الزمن قبل أن تتمكن مصانعنا من التعويض على ما خسرناه من عتاد في دنكرك ... أليس من العجيب بعد كل هذا ألا يكون العالم كله على يقين من أن ساعتنا الأخيرة قد دنت ؟؟

وانتشر الرعب في الولايات المتحدة وسائر الدول الأخرى الحرة ، وأخذ الأميركيون

يتساءلون في اهتمام : هل من واجبهم أن يجازفوا بمواردهم المحدودة الضئيلة إرضاء للمشاعر الطيبة وحدها وإن كانت المخاطرة ميؤوسًا منها ؟

أليس من الأجدى أن يبذلوا أي جهد وأن يوفروا كل سلاح لملاقاة ضعف استعدادهم ، وكان التغلب على هذه الأسانيد ، يتطلب منطقًا مستقيمًا وعلى جانب من الثقة ، ولا ريب في أن الشعب البريطاني مدين لرئيس الولايات المتحدة وكبار القادة والمستشارين ؛ لأنهم على الرغم من اقتراب موعد انتخابات المرة الثالثة للرئاسة لم يتخلوا عن ثقتهم القوية في تصميم بريطانيا وقدرتها على النضال ، وليس من شك في أن تصميم بريطانيا القوي الذي لم ينله أي ضعف أو وهن كان عاملاً من عوامل رجحان كفتنا في القتال .

إن هذا الشعب الذي ظل في سنوات ما قبل الحرب يسير في طريق المسالمة وعدم التفهم، ويخوض غمار المهازل الحزبية ، ويغرق إلى أبعد الحدود في لجة السياسات الأوروبية بلا خوف ... ها هو الآن يلاقي مصير تقصيره في التأهب والاستعداد ، وثمرة اتكاله على النوايا الحسنة والحوافز الكريمة ، ولكن العالم يراه في الوقت نفسه مصممًا على أن تصبح هذه البلاد قطعة من الخراب قبل أن تبدو جزيرته خانعة ذليلة ...

وهذه بلا جدال إحدى صفحات التاريخ الرائعة ، ولكنها ليست الصفحة الوحيدة به ، فعندما استولى الإسبرطيون على أثينا ، أصرت قرطاجة على الصمود والاستبسال حتى الموت أمام روما ، والتاريخ حافل بصفحات كثيرة عن شعوب استماتت في النضال ، ودول شجاعة تفيض بالكبرياء ... آثرت أن تغنى وتموت وألا يبقى لها أثر .

ولم يكن هناك في ذلك الحين سوى أقلية معدودة من البريطانيين والأجانب تقف على الأهمية الإستراتيجية لموقعنا الجغرافي المنعزل ، ولم يكن كثيرون قد عرفوا في مدى سنوات ما قبل الحرب إننا كنا نحافظ على مقومات دفاعنا البحري والجوي ، وقد مضى على الجزر البريطانية ما يقرب من ألف عام لم تشهد أرضها نيران غزو من الجو ، وظل كل بريطاني في قمة الكفاح محتفظًا بهدوء أعصابه، راضيًا كل الرضا بالتضحية بحياته في سبيل بلاده ، وسرعان ما أخذ الأعداء والأصدقاء في سائر بلاد العالم يدركون أن هذه هي طبيعتنا الأصلية ... وماذا يكمن خلفها ؟ أنه الأمر الذي يمكن أن يظهر في الشدائد ..

وكانت هناك ناحية أخرى ، فقد تعرضنا خلال شهر حزيران لخطر كبير ... فقد رأينا آخر ما لدينا من قوات احتياطية تسحب ليقضي عليها في محاولة يائسة في فرنسا ، وأن قواتنا الجوية تتضاءل شيئًا فشيئًا في هذه الغارات التي نمضي بها إلى القارة أو في نقلها إلى هناك ، ولو كان هتلر موهوبًا ، أو متمتعًا بحكمة خارقة ، لأبطأ في هجومه على الجبهة الفرنسية مدة ثلاثة أسابيع أو أربعة بعد معركة دنكرك على خط نهر السين ، ليتم استعداداته للهجوم على بريطانيا ... ولو حدث هذا لأصبحنا في وضع مخيف لا خيار لنا فيه ، فإما أن نتخلى عن فرنسا وفي هذا تعذيب لنا ، وألم لفرنسا ، وإما أن ننشر قواتنا وننشرها مع ما في هذه القوات من ضرورة قصوى لمستقبلنا وحياتنا، إذ كلما حفزنا الفرنسيين على المضي في القتال ، تحتم علينا نحن أن نزيد في العون لهم ، وهذا يؤدي إلى اشتداد الصعوبات في طريق إعدادنا للدفاع عن بريطانيا نفسها ، ولاسيما بالنسبة للأسراب الخمسة والعشرين من طائراتنا المقاتلة التي يتوقف مصير كل شيء عليها ، وبالطبع كان مستحيلاً أن نتخلى عن هذه الأسراب ، ولكن رفضنا سيؤدي بالتأكيد إلى إغضاب حليفتنا الباسلة مما يعكر صفو علاقاتنا ، وعلى هذا فقد رأينا عددًا من كبار قادتنا ، ينظرون إلى مشكلاتنا الهينة نوعًا ما ، بعد أن أصبحنا وحدنا ، نشعر بشيء من الراحة ، وكأن عبئًا ثقيلاً قد نزل عن كواهلهم، وأصبح وضعنا كوضع مدرب أحد النوادي العسكرية الذي أخذ يخاطب لاعبًا قد تهاوت معنوياته بقوله : « أيًا ما كان الأمر فقد بلغنا المعركة الفاصلة ، وسيكون نادينا ميدانها » .

❖ ❖ ❖

لم تكن القيادة الألمانية العليا ، حتى هذه الفترة قد استهانت بقيمة ما عليه مركزنا من قوة، وقد ذكر تشيانو أنه قابل هتلر في برلين في ١٧ تموز عام ١٩٤٠ وتحدث مع الجنرال فون كايتل طويلاً ، كما تحدث هتلر نفسه عن غزو لبريطانيا ، فأكد له أن الرأي لم يستقر نهائيًا على أي شيء وقد ذكر أن عملية النزول إلى البر في إنكلترا غير مستحيلة إلا أنها صعبة جدًا ، ويجب أن تقوم بها ألمانيا وهي في غاية الحذر ، إذ إن أخبارنا عن الترتيبات العسكرية في الجزيرة ، وطرق الدفاع عن شواطئها قليلة وغامضة ومثبتة في صحتها ، وأضاف كايتل أن ما يبدو سهلاً وجوهريًا هو شن هجوم جوي مركز على المطارات والمصانع ومراكز

المواصلات الرئيسية في بريطانيا العظمى ، ومن المحتم أن يعرف كل إنسان أن السلاح الجوي البريطاني في منتهى القوة ، وذكر كايتل أن هذا السلاح الجوي يتألف من حوالي ألف وخمسمائة طائرة مستعدة للدفاع والهجوم المضاد ، كما اعترف أن الغارات التي يقوم بها السلاح الجوي البريطاني قد تزايدت كثيرًا ، وأن من ناحية إصابة الأهداف من الجو فهم في غاية المهارة ، وكان عدد الطائرات المغيرة في كل مرة يصل إلى الثمانين لكن بريطانيا تعاني نقصًا كبيرًا في الطيارين ، وليس في وسعها أن تستعيض عن هؤلاء الذين يهاجمون المدن الألمانية الآن، بالطيارين الجدد الذين ينقصهم التدريب إلى حد كبير .

وأصر كايتل على ضرورة توجيه ضربة إلى جبل طارق لقطع شرايين المواصلات البريطانية وشل حركتها ، ولم يشر كايتل أو هتلر إلى مدة الحرب أو أجلها ، وكان هملر وحده الذي ذكر عرضًا أن الحرب يجب أن تنتهي قبل ابتداء شهر تشرين الأول .

هذا هو التقرير الذي وضعه تشيانو في مذكراته ، وقد عرض على هتلر استجابة لطلب الدوتشي العاجل إمداده بحوالي عشر فرق من قواته ووحدة جوية تتكون من ثلاثين سربًا للمساهمة في الغزو وقد اعتذر هتلر عن قبول القوات البرية في لباقة ، ووصلت بعض الأسراب الجوية الإيطالية ، لكنها لم تصب نجاحًا في مهمتها كما سنرى .

وقد ألقى هتلر في ١٩ تموز خطاب القائد المنتصر في الرايشتساغ ، وبعد أن تنبأ بأني سألجأ إلى كندا ، قدم ما يمكن أن يسمى عرضًا للصلح ، وقد أرفق عرضه هذا بمذكرات دبلوماسية أرسلت عن طريق السويد والولايات المتحدة والفاتيكان - وبدا من الطبيعي بعد أن خضعت أوروبا كلها لإرادته ، سيكون في غاية السرور إذا تمكن من الحصول على موافقة بريطانيا على كل ما فعله ، ولم يكن العرض في الحقيقة يتناول السلام ، وإنما يتناول الاستعداد لتقبل إذعان بريطانيا للتخلي عن كل ما خاضت الحرب من أجله .

وفكرت في أول الأمر في إثارة الموضوع بصفة رسمية في البرلمان ، ولكن زملائي الوزراء رأوا أن مثل هذا العمل يؤدي إلى التشويش حول موضوع كنا جميعًا متفقين حوله ، وتقرر عوضًا عن ذلك أن يكلف وزير خارجيته بالرد على عرض هتلر في إذاعة موجهة في يوم ٢٢ تموز يرفض فيها دعوة هتلر ... وأذيع الحديث الذي «قذف جانبًا» بدعوة هتلر

«للاستسلام لإرادته» ثم قارن بين أوروبا الهتلرية، وأوروبا التي نقاتل في سبيل حمايتها، وأعلن أننا لن نتوقف عن القتال حتى نضمن وجود الحرية .. وفي خلال ذلك كانت الصحف البريطانية والإذاعة قد رفضت أي حديث عن الصلح، دون تدخل من حكومة جلالته، وإنما بدافع من نفسها بعد الاستماع إلى خطاب هتلر من الإذاعة.

ويذكر تشيانو في مذكراته أنه «عندما أذيع أول رد بريطاني، الذي كان متسمًا بالبرودة، على الخطاب في الساعات الأخيرة من ليلة ١٩ تموز ... ساد بين الألمان شعور بخيبة الأمل، بيد أن هتلر كان يتطلع إلى التفاهم مع بريطانيا العظمى، فقد كان يدرك أن الحرب مع البريطانيين ستكون قاسية تفيض بالدماء. وهو يدرك تمامًا أن الناس في كل مكان يكرهون سفك الدماء. أما موسوليني فيخشى من ناحية أخرى أن يجد الإنكليز في خطاب هتلر الماكر للغاية مبررًا للبدء في المفاوضات، وهذا مما يحز في نفس موسوليني لأنه يرغب في الحرب الآن أكثر من أي وقت مضى، وأيًا كان الأمر فلم يكن موسوليني في حاجة إلى الغضب أو الثورة، فسيتاح له أن يخوض كل أهوال الحرب التي يتمناها.

وقد قدم رؤساء أركان الحرب بواسطة الجنرال إيسماي اقتراحًا في أواخر شهر حزيران ليزور المناطق المهددة في السواحل الجنوبية والشرقية، وتلبية لهذا الاقتراح خصصت يومًا أو يومين من كل أسبوع للقيام بهذه الزيارة المحبوبة، وكنت أنام عندما تفرض الظروف في قطاري الخاص الذي تهيأت لي فيه كل أسباب الراحة ليتاح لي أداء أعمالي العادية بكل انتظام .. مع العلم أني كنت أتصل دائمًا (بهوايتهول). وقد قمت بزيارة «التاين» و«الهامير» وغيرهما من الأماكن المهددة بإنزال محتمل، وشاهدت مناورة للفرقة الكندية في كنت، وقمت بالكشف عن الخطوط الدفاعية الداخلية في هارويتسن ودوفر، وكانت إحدى زياراتي الأولى للفرقة الثالثة التي يقودها الجنرال مونتغومري وهو ضابط لم أكن قد التقيت به، وقد صحبتني زوجتي في هذه الزيارة للفرقة المذكورة المرابطة على مقربة من برايتون. وكانت هذه الفرقة قد أعطيت أهمية خاصة من ناحية الإعداد، وكانت على وشك الإبحار إلى فرنسا عندما انهارت المقاومة الفرنسية.

وقد أقام الجنرال مونتغومري مركز قيادته في ستيتنج، وأراني مناورة صغيرة كانت

الحركة الرئيسية فيها مناورة قامت أساسًا على تحركات حاملات مدافع برن الرشاشة التي لم يكن في استطاعته أن يستخدم منها حينذاك سوى سبع أو ثماني حاملات . ومضت بنا السيارة بعد ذلك على الساحل عبر «شورهام» و «هوف» إلى أن وصلنا إلى جبهة برايتون المعروفة التي لي فيها الكثير من الذكريات القديمة . وقد تناولنا عشاءنا في فندق «البيون» الملكي الذي يقع على الناحية المواجهة لرصيف الميناء الداخلي . وكاد الفندق أن يكون مقفرًا من الناس بسبب عمليات الانسحاب الأخيرة، ومع ذلك فكان هناك من يستنشق الهواء الطلق ويتنزه على الشاطئ ، وفي الميادين وقد سرني أن أرى طائفة من «حرس قاذفي القنابل» يمهدون مركزًا لمدفعهم الرشاش في أحد أكشاك الرصيف . فذكرني ذلك بما كنا نفعله في طفولتنا ونحن نعبث بالمخلفات القديمة. وكان الجو رائعًا جميلاً ، وتحدثت إلى القائد أحاديث مثمرة ... والحق أني كنت شديد السرور بهذه الزيارة .

وفي منتصف شهر تموز اقترح على وزير الحربية إحلال الجنرال بروك محل الجنرال أيرونسايد في قيادة الجيوش ، وفي ١٩ تموز حينما كنت أطوف لاستطلاع القطاعات المعرضة للهجوم زرت القيادة الجنوبية ورأيت التجربة الواقعية التي ساهمت فيها اثنتا عشرة دبابة تقريبًا ، وبقيت في السيارة طيلة بعد الظهر مع الجنرال بروك الذي كان يتولى قيادة تلك الجبهة، ولاشك أن سجل ماضيه كان رائعًا ، فقد قاد المعركة الفاصلة عند «إبيرس» أثناء عملية الانسحاب إلى دنكرك، ثم تمكن بما أوتي من حذق وصلابة ، وفي وسط عوامل في منتهى الصعوبة والقوة ، عندما كان يقود القوات الجديدة التي أرسلناها إلى فرنسا خلال الأسابيع الأولى من شهر حزيران ، تمكن من إنقاذ حملته ، وكانت تربطني به صلة أيضًا عن طريق أخوية البطلين اللذين كانا لي صديقين في بداية حياتي العسكرية .

على أن هذه العلاقات والذكريات لم يكن لها أي تأثير على وجهة نظري في موضوع حيوي كهذا الذي يتصل باختيار القائد العام ولكنها وثقت الصلات بيني وبين الآن بروك في غضون الحرب . وقطعنا ما يقارب الأربع ساعات معًا في السيارة في ذلك اليوم من تموز عام ١٩٤٠ ، وكنا على اتفاق تام بشأن كافة وسائل الدفاع في داخل الوطن . وبعد المشاورات الضرورية مع الآخرين وافقت على اقتراح وزير الحربية بتولي بروك القيادة العامة

خلفًا للجنرال أيرونسايد الذي واجه إحالته إلى التقاعد بما اشتهر عنه من اعتزاز في جميع الظروف التي تمت بها أعماله العسكرية .

وظل بروك في القيادة سنة ونصف تعرضنا فيها لخطر الغزو ، فنظم القوات تنظيمًا حسنًا، وعندما صار فيما بعد رئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية استمر التفاهم بيننا رائعًا حتى انتهينا إلى النصر ، وسأورد بعد قليل المكاسب التي حققتها من استشارته في إجراء تغييرات حاسمة في القيادات في مصر بالشرق الأوسط في شهر آب عام ١٩٤٢ ، وما كان لها من خيبة أمل في موضوع قيادة عملية الغزو عبر القنال (المانش) في عملية السيد الأكبر (أوفر لورد) عام ١٩٤٤ . وقد أدى خدمات جليلة في المدة الطويلة التي عمل فيها رئيسًا للجنة رؤساء أركان الحرب ، في معظم سني الحرب ورئيسًا لأركان حرب القوات الإمبراطورية ، لا للإمبراطورية البريطانية فحسب بل للحلفاء جميعًا ، وسأحكي في هذه القصة بعض الاختلافات في وجهات النظر التي حدثت فيما بيننا أحيانًا ، وأقص كذلك كثيرًا من المسائل التي اتفقنا فيها وهي تؤكد مدى صداقتنا كل التأكيدات .

❖ ❖ ❖

وفي هذا الشهر وصلت إلينا كميات وافرة من السلاح الأميركي عبر الأطلنطي من غير أن تمس بسوء . وبينما كانت البواخر تقترب من سواحلنا بما تحمله من عتاد لا يقدر بثمن، كانت هناك قطارات خاصة أعدت لتحملها من الموانئ ، وقد مكث الحرس الوطني في كل مقاطعة وكل بلدة وكل قرية متلهفًا على تسلم هذه الأسلحة ، وأكب الرجال والنساء على العمل بكل قواهم لتجهيز هذه الأسلحة وجعلها صالحة للاستعمال . وهكذا أصبحنا في نهاية شهر تموز شعبًا مسلحًا على أهبة الاستعداد لمواجهة أي غزو يقوم به المظليون . نعم لقد أصبحت بريطانيا أشبه ما تكون «بخلية نحل» وإذا قدر لمقاومتنا أن تنهار ، وهو احتمال بعيد ، فإن حشدا من الرجال والنساء، سيظل شاكي السلاح وقد استطعنا بوصول الدفعة الأولى من البنادق الأميركية إلى حرسنا الوطني بصرف النظر عن ضآلة كمية الطلقات التي لم تزد عن خمسين طلقة لكل قطعة ، استطعنا أن نزود جيشنا العامل بثلاثمائة ألف بندقية بريطانية .

وبدأ كثير من الخبراء يجهزون بكل سرعة مدافع الخمسة والسبعين ملليمترًا التي وصلت إلينا، ومع كل مدفع منها ألف قذيفة، ولم يكن بحوزتنا معدات لإيصال المدافع بعرباتها كما أنه لم توجد لدينا الوسائل العاجلة لإنتاج عدد أكبر من القذائف على الرغم من أن المدافع المختلفة الأحجام تعقد العمليات الحربية، إلا أنني صممت منذ البداية على استخدامها. وأصبحت هذه المدافع منذ وصولها إلينا وطيلة عامي ١٩٤٠ و ١٩٤١ جزءًا مهما في قوتنا العسكرية المدافعة عن الوطن. كما قمنا بعمل ترتيبات خاصة تعد مبتكرة دربنا عليها عددًا من الرجال لإدارة هذه المدافع وربطها في سيارات الشحن لنقلها من مكان إلى آخر، وعندما تقاتل دفاعًا عن كيانك فإن وجود مدفع خير من عدمه. وقد مكث المدفع الفرنسي من طراز ٧٥ ملليمترًا سلاحًا فعالاً بالرغم من قدمه بالنسبة للمدافع البريطانية الحديثة من طراز ٢٥ رطلاً والمدافع الألمانية (هاوتزر).

وعندما مضت أشهر تموز وآب دون أن تنزل بنا الكارثة الساحقة، هدأنا بعض الشيء وازدادت ثقتنا في مقدرتنا على خوض غمار حرب طويلة قاسية، وكنا نشعر بقوتنا تزيد يومًا عن يوم. فكل فرد في المجموع يعمل بكل طاقته ليل نهار، ويمضي إلى نومه بعد ذلك شاعرًا بثمار أعماله، واثقًا بأن الوقت أصبح في صالحنا، وإننا سننتصر في الحرب دون شك.

وازدحمت الشواطئ الآن بمختلف أنواع الوسائل الدفاعية وتم تنظيم البلاد كلها في مجموعات ووحدات دفاعية وغدًا السلاح يتدفق من المصانع، ولم يكتمل شهر آب حتى أصبح في حوزتنا مائتان وخمسون دبابة جديدة. وبدأنا نجني ثمار المساعدة الأميركية وأخذ رجال الجيش البريطاني العامل وزملاؤهم من رجال الجيش الإقليمي يقومون بتدريباتهم في ساعات الصباح الباكر حتى المساء، وبهم لهفة إلى لقاء العدو، وازداد عدد جنود الحرس الوطني إلى ما فوق المليون، وعندما كان ينقصهم السلاح كانوا يعمدون إلى استخدام أسلحة الصيد والرياضة والمسدسات الخاصة وأحيانًا الفؤوس والمجارف. ولم يتكون في بريطانيا طابور خامس، وأن صادفت قوات الأمن بعض الجواسيس، أما القلة الشيوعية الموجودة في بلادنا فقد تلاشت أصواتهم على حين أقدم الشعب كله على بذل كل ما يستطيع من تضحيات غالية.

وعندما زار فون ريبنتروب روما في أيلول قال لتشيانو : «إن الدفاع الإقليمي عن إنكلترا لا وجود له بلا شك ، وأن فرقة ألمانية واحدة يمكنها أن تؤدي إلى انهيار كامل فيها» إن قوله هذا يكشف عن جهله الفاضح بنا ، وعلى كل فقد تساءلت في قرارة نفسي : ماذا يكون لو تمكن مائتا ألف ألماني من جنود العاصفة التجمع على شواطئنا ؟ لاشك بأن المذبحة ستكون رهيبة مروعة لدى الفريقين. إذ لم يكن هناك مجال للرحمة أو الشفقة ، فقد كان الألمان على استعداد لاستخدام الإرهاب ، وكنا من ناحيتنا على استعداد للمضي في المقاومة إلى أقصى حد ممكن . وقد قررت تطبيق المثل السائر : «بوسعك دائمًا أن تمضي بشخص آخر معك بعيدًا عن هذه الدنيا» وقد قدرت أن أهوال هذا المنظر ستقضي بالنهاية إلى ترجيح كفة الولايات المتحدة ، لكن كل هذه العواطف لم توضع موضع التجربة والاختبار ، وفوق مياه المانش ومياه بحر الشمال الزرقاء ربضت عشرات العمارات البحرية المتلهفة على القتال ساهرة الليل بطوله ، بينما كان طيارو المقاتلات يحلقون في السماء أو يقفون إلى جانب طائراتهم استعدادًا لتلقي أي إشارة تصدر إليهم .

حقًا لقد كانت تلك الفترات جديرة بالحياة أو الموت . إذا وقفت على حقيقة القوات البحرية فقد وقفت على معرفة لها شأنها وروعتها . فاقتحام جيش لمياه المحيطات والبحار ، بالرغم من وجود أساطيل قوية وعمارات بحرية هائلة أمامه ، عمل حربي معجز ، وقد أضاف البخار كثيرًا من القدرات إلى إمكانيات الأسطول في الدفاع عن بريطانيا العظمى . ففي عصر نابليون كانت الرياح تستطيع الدفع بقواربه المسطحة القعر إلى الخلف ، لكن ما حصل بعد ذلك قد ضاعف من تفوق الأساطيل القوية ومقدرتها على تحطيم الغزاة وهم في الطريق . وأدى كل تعقيد في الأجهزة الحديثة بالنسبة إلى الجيوش إلى أن أصبحت مهمتها أكثر صعوبة ومشقة ، وإلى أن صارت المتاعب التي تواجه قيادتها في تزويدها بالعتاد والذخائر بعد إنزالها أمرًا فوق الطاقة ، وفي أزمة الحرب السابقة التي اهتز فيها مصيرنا كانت لنا قوة بحرية متفوقة ، ولم يستطع العدو كسب معركة بحرية واحدة هامة ضدنا ، لقد عجز عن مجابهة قوة طراداتنا وبالطبع كانت ثمة فرص أكثر من أن تعد تتصل برداءة الطقس وخاصة في حال تكاثف الضباب ، على أنه على فرض قيام هذه الفرص المعادية لنا واستطاع

العدو النزول إلى شواطئنا في مكان أو أكثر ، فإن مشكلة تزويد هذه القوات بما يلزمها وتغذيتها بأية تجمعات أخرى ، هذه المشكلة تظل مستعصية الحل . هكذا كان الوضع في الحرب العالمية الأولى . أما الآن فقد دخل عنصر الطيران ، فما هو تأثير هذا التغيير الرئيسي على الغزو ؟ من الظاهر أن العدو إذا تمكن من السيطرة على مضايق دوفر ، بقوته الجوية المتفوقة ، فإن خسائرنا في المدمرات ستكون كبيرة للغاية ، وقد تكون أيضًا قاضية علينا ، ولن يوجد إنسان لديه الرغبة في الإتيان ببوارج ضخمة أو طرادات كبيرة إلى مياه تسيطر عليها القاذفات الألمانية ، وبالفعل لم نضع أي بواخر ضخمة إلى الجنوب من «فيرث أوف فورت» أو إلى الشرق من «بلايموث» ، ولكننا جهزنا في هارويش ونور ودوفر وبورتسماوث وبورتلاند دوريات دائمة اليقظة تتألف من سفن حربية خفيفة ، وقد أخذ عددها يتكاثر باستمرار ، ولم يأت شهر أيلول حتى صار العدد أكثر من ثمانمائة ، ولم يكن في الإمكان بعد ذلك تدميرها إلا بواسطة قوة جوية متفوقة معادية تحاول العمل على عدة مراحل .

وهنا يرد السؤال : لمن كان التفوق في الجو ؟ لقد كنا نقاتل الألمان في معركة فرنسا وهم متفوقون علينا في العدد بضعفين أو بثلاثة أضعاف ، وبالرغم من ذلك فقد ألحقنا بهم خسائر تعادل النسبة السابقة ، وفي سماء دنكرك وقد فرض علينا الاحتفاظ بدوريات مستمرة لتغطية إنقاذ جيشنا ، كنا نحاربهم بكسب وغنم على الرغم من تفوق عددهم بنسبة أربعة أضعاف أو خمسة ، وتوقع مارشال الجو الأعلى داودنج ، قدرتنا على قتالهم وصد هجماتهم بنجاح ، فوق مياهنا وشواطئنا ومقاطعاتنا المكشوفة ، حتى لو تفوقوا علينا بنسبة سبعة أو ثمانية أضعاف .

وقد كانت قوة السلاح الجوي الألماني في ذلك الحين حسب معلوماتنا الصحيحة تعادل ثلاثة أضعاف ما نملكه ، وبالرغم من أن هذا التفاوت كبير بالنظر إلى القتال مع أعداء شجعان أقوياء كالألمان . فقد توصلت إلى النتيجة التي سبق التوصل إليها ، وهي أن في سماءنا وفوق بلادنا ومياهنا نستطيع الانتصار على السلاح الجوي الألماني ، وإذا صح هذا فإن بحريتنا هي الأخرى ستبقى محتفظة بسيطرتها على البحار والمحيطات وستقوى على إحباط محاولات الأعداء الذين يحاولون شق طريقهم إلينا .

ويبقي عامل ثالث في الإمكانيات والاحتمالات ، فلو تمكن الألمان بما عرف عنهم من

مقدرة . وبعد في النظرة ـ من تجهيز حملة كبيرة بطريقة سرية تحوي قطعًا خاصة للإنزال لا تحتاج إلى موانئ أو أرصفة ، وإنما تقوم بعملية الإنزال للدبابات والمدافع والسيارات المدرعة في أي نقطة مناسبة على الشاطئ ، فهل يقدرون بعد ذلك على تزويد هذه القوات بالمؤن ؟ ومع أنه لم يكن لدينا أي مبرر يحملنا على الاعتقاد بوجود مثل هذه المخترعات لدى العدو ، إلا أن قواعد الحساب الصحيحة تقضي باحتمال الخسائر تمامًا كالأرباح .

وتطلب منا إيجاد المعدات التي لزمتنا في عملية غزو نورماندي ، بذل جهد كبير متواصل بالإضافة إلى التجارب والعون المادي الضخم من جانب الولايات المتحدة الأميركية طوال أربع سنوات ، وبالحقيقة لم يكن الألمان بحاجة إلى هذا العدد الكبير من المعدات في مثل هذا الوقت ، إلا أنهم كانوا يملكون معابر قليلة في العدد .

وهكذا أوجبت علينا مشكلة غزو بريطانيا في صيف عام ١٩٤٠ وفي الخريف من نفس العام، تفوقًا جويًا ضخمًا وإمكانية ضخمة في السيطرة على المياه الإقليمية بالإضافة إلى كميات هائلة من معدات الإنزال . لكن السيطرة على البحار كانت إلى جانبنا ، كما كان لنا التفوق الجوي ، وكنا على ثقة ـ وقد ثبت لنا فيما بعد صحة هذا الاعتقاد بأن الألمان لم يقوموا ببناء قطع بحرية ضرورية للإنزال.

هذه هي أسس تفكيري عام ١٩٤٠ وكان هناك الكثير من الحديث حول هذا الموضوع بالذات والكثير من القلق في شهر تموز لدى الدوائر الحكومية وخارجها ، وبالرغم من عمليات استطلاعها المستديمة عن سفن النقل الألمانية في البلطيق أو في مرافئ الراين والشلدات ، وقد كنا على يقين كذلك من أن أية بواخر أو صنادل من ذوات المحرك الآلي لم تعبر المضائق إلى بحر المانش، فبالرغم من كل هذا فقد كان شغلنا الشاغل هو التجهيز والاستعداد الكامل لمواجهة أي غزو وسحقه . وكنا نعتمد اعتمادًا كليًا على تفكيرنا هذا في وزارة الحربية وفي القيادة العسكرية.

وكانت خطة الألمان التي كشف عنها ، تعتمد على وجوب الغزو عبر القنال بسفن متوسطة الحجم تتراوح حمولتها بين أربعة آلاف طن وخمسة آلاف ، بالإضافة إلى قطع

صغيرة أخرى ، والآن نحن نعلم أنهم لم يكونوا يتطلعوا إلى المضي بجيوشهم من مرافئ البلطيق أو بحر الشمال في سفن كبيرة ، كما أنهم يفكروا بالغزو في موانئ بسكاي ، وهذا لا يعني أنهم كانوا منصفين حين اختاروا الساحل الجنوبي كهدف لغزوهم ، وإن كان كل منا على خطأ ، فعملية غزو الساحل الشرقي كانت ذات قيمة أكبر لو تمكن العدو من أن يؤمن السبل والوسائل لتلك المحاولة ، وطبعًا لم يكن هناك من مجال لغزو الساحل الجنوبي إلا بعد أن تمر البواخر الضرورية جنوبًا عبر مضيق دوفر ، بعد أن تتجمع في المرافئ الفرنسية القائمة على القنال ، وطوال شهر تموز لم نر أثرًا لشيء من هذه التحركات .

وبالرغم من كل هذا فقد ترتب علينا أن نستعد لكافة الظروف والاحتمالات ، وإلا نوزع قواتنا المتحركة في الوقت ذاته ، وأن نقوم بجمع قواتنا الاحتياطية وحشدها ، وفي الإمكان حل هذه المشكلة المستعصية والشائعة في نفس الوقت ، فالأحداث تتوالى من أسبوع لآخر والساحل البريطاني المعروف بكثرة تعاريجه يبلغ طوله أكثر من ألفي ميل ، باستثناء أيرلندا ، والسبيل الوحيد للدفاع عن محيط متسع كهذا قد يتعرض أي جزء منه أو جزءان منه في وقت واحد لهجوم مفاجئ ناجح يحتم علينا إنشاء مراكز للمراقبة والمقاومة حول الشاطئ ، أو الحدود غايتها عرقلة الزحف الأجنبي مع إيجاد أكبر قوة ممكنة من الاحتياطي ، في الوقت نفسه تضم جنودًا مدربين وعاملين في وحدات متحركة ، يمكنها الوصول إلى أي مكان يقع عليه هجوم مفاجئ في أقصر مدة ممكنة ، ثم البدء في هجوم معاكس .

وعندما وجد هتلر نفسه محاطًا ـ في مراحل الحرب الأخيرة ـ بالأعداء ، وواجه نفس المشكلة ، وقع في أخطاء كبيرة خين عالجها ، فلقد أقام شبكة من المواصلات تشبه نسيج العنكبوت ، لكنه نسي العنكبوت نفسه ، ولما كانت قصة تشتيت القوات الفرنسية الخاطئة التي أدت إلى الكارثة ، واقتضتنا ثمنًا فادحًا لا تزال حاضرة في ذهني ، فإنني قد صرفت جهدي كله منذ البداية إلى حشد قوات المناورة ، وقد رسخت هذه السياسة في نفسي إلى أقصى حد ممكن تسمح به مواردنا المتضاعفة .

وقد التقت آرائي بوجهات نظر البحرية ، وأرسل إلى الأميرال باوند بيانًا مفصلاً في ١٢

تموز أعده بالاشتراك مع رؤساء أركان حربه، الذي كان قائمًا على هذه الأسس النظرية، وقد فصل البيان بالطبع جميع الصعوبات التي علينا مواجهتها وقال الأميرال باوند في إجماله للخطة: «ربما يصل إلى شواطئنا ما يقارب المائة ألف جندي دون أن تكون لدينا القوات البحرية الكافية لقطع الطريق عليهم ووقفهم».

إلا أن الإبقاء على خط مواصلات لتموين هذه القوات أمر مستحيل عمليًا إذا استطاع السلاح الجوي الألماني أن يتغلب على سلاحنا الجوي وأسطولنا في نفس الوقت، وإذا ما قام العدو بعملية كهذه فربما كان التقدم نحو لندن بسرعة والاعتماد في تموينه على البلاد التي يحتلها في طريقه، على حين يرغم الحكومة على الخضوع والاستسلام، وقد اقتنعت بهذا الاحتمال اقتناعًا تامًا، وتغير الوضع تغيرًا حاسمًا في شهر آب، فقد تأكد لمخابراتنا الماهرة أن هتلر قد أصدر تعليماته بالإعداد لعملية «أسد البحر»، وأن هذه العملية في دور الإعداد الفعلي في هذا الوقت، وبدا لنا بشكل نهائي أن الرجل سيقدم المغامرة وكانت الجبهة التي سيهجم عليها تختلف تمامًا، وقد تكون ثانوية بالنسبة للساحل الشرقي الذي كنت أنا قد وجهت إليه بالغ العناية مع رؤساء أركان الحرب الأميرالية، وسرعان ما بدأ عدد كبير من الصنادل ذوات المحرك الآلي، والزوارق البخارية يعبر مضايق دوفر أثناء الليل زاحفًا بالقرب من الشاطئ الفرنسي، ليتجمع شيئًا فشيئًا في سائر الموانئ الفرنسية الممتدة من كاليه إلى بريست، وكانت الصور الفوتوغرافية التي ترد إلينا كل يوم تظهر لنا هذه التنقلات بدقة وعناية، ورأينا أنه من العسير علينا أن نزرع ألغامنا على مقربة من الساحل الفرنسي، ومضينا فورًا إلى مهاجمة هذه المراكب المتحركة بوحداتنا الصغيرة، وركزت قيادة قاذفات القنابل هجومها على موانئ الغزو، وسرعان ما انهالت علينا الأنباء عن احتشاد جيش أو جيوش ألمانية ضخمة استعدادًا للقيام بهذا الغزو على قطاع الساحل المعادي، وعن تحركات واسعة النطاق على السكك الحديدية واحتشادات ضخمة في خليج كاليه ونورماندي وظهرت إلى حيز الوجود أعداد وفيرة من بطاريات المدافع القوية البعيدة المدى، منتشرة على طول الساحل الفرنسي القائم على القتال، وكان يترتب علينا أن نجابه الخط الجديد وننقل اعتمادنا على هذه الخطوة إلى خطوة أخرى ونهيئ كافة السبل لتيسير نقل احتياطنا المتحرك الذي

يتضاعف عدده إلى الجبهة الجنوبية ومضى الوقت وقواتنا المتزايدة عددًا والمتقدمة كفاءة وسرعة في التحرك، تطمئننا إلى قدراتها وفعاليتها ، ولم ينقض النصف الأخير من شهر أيلول، حتى كان في استطاعتنا أن نحشد ست عشرة فرقة من أحسن الفرق نظامًا وإعدادًا على الساحل الجنوبي بينها ثلاث فرق مدرعة عدا أجهزة الدفاع الساحلية المحلية ، وقد أصبح في مكنتها القيام على الفور بأي عمل عسكري يوكل إليها ضد أية عملية للغزو أو الإنزال ، وأصبحت لنا قوة ضاربة أو مجموعة من القوى الضاربة التي كان الجنرال بروك وحده القادر على تحريكها عندما تحين الساعة ،فهو أكثر سيطرة عليها من كل من عداه .

❖ ❖ ❖

جرى كل ذلك بالرغم من عدم ثقتنا بأن جميع المداخل ومصبات الأنهار المنتشرة من كاليه إلى تيرشيلنج وهيلجولاند ، وكل ما أمامه من جزر تقع بالقرب من الساحلين الهولندي والدنمركي ، لا تخفي قوات معادية هائلة أخرى من نوع صغير أو متوسط ، وقد خطر في بالنا أن الهجوم سيبدأ من هارويش حول بورتماوث وبورتلاند إلى بليموث مع تركيز خاص على مقاطعة «كنت» أيضًا، ولم توجد لدينا أية براهين أخرى إيجابية على أن موجة ثالثة من الغزو قد لا تتسق وتتوافق في الزمن مع الموجتين الأوليين ، وتشن من موانئ البلطيق خلال مضائق سكاجراك في سفن كبيرة ، ولاشك في أن مثل هذا الغزو جوهري بالنسبة لخطط الألمان لتحقيق النجاح ، إذ تعتبر الوسيلة الوحيدة لوصول الأسلحة الثقيلة التي تم إنزالها ، أو لإقامة مستودعات تموين كبيرة .

ودخلنا في ذلك الحين فترة من التوتر الشديد ، واليقظة الدائمة وكان علينا طيلة الوقت أن نحرص على وجود قوات كبيرة في الشمال من «دوش» حتى «كروماريتي» ، كما قمنا بعمل الترتيبات اللازمة لسحب جزء منها في حالة وقوع الغزو في الجنوب ، وكان في مقدرتنا بفضل الشبكة الرائعة الداخلية من سكك حديدنا ، وبفضل استمرار سيطرتنا على الجو في سماء وطننا ، أن نسحب أربع فرق أو خمس من الشمال لتعزيز الدفاع عن الجنوب في حالات الضرورة القصوى خلال أيام الرابع والخامس والسادس من بدء تحرك العدو .

وأجرينا دراسة دقيقة لأوضاع القمر والمد والجزر وتيقنّا من أن العدو سيؤثر عبور البحر في الليل والنزول إلى الأرض عند الفجر، وها نحن أولاً نعرف أن ما تيقنا به كان على صواب أيضًا، ولم نجد لدينا ذرة من الشك في مقدرتنا على تحطيم كل ما ييسر للعدو النزول في أكمة دوفر البحرية أو في القطاع الساحلي الممتد من دوفر إلى بورتسماوث وإلى بورتلاند، وكانت أفكارنا جميعًا ـ نحن الذين نتولى القيادة ـ تسير في اتجاه وتوافق تأمين مما يثير الإعجاب لتوجيه ضربة إلى عدونا تخلف دويًا في كافة أنحاء العالم، ولم يكن في استطاعة أي إنسان إلا أن يحس بالحماسة، ويشعر بالتأثر من هذا الجو الذي يولي بعزم هتلر وعتاده.

وكان من بيننا من يتحرق شوقًا إلى قيام هتلر بمحاولته، يحدوهم إلى ذلك العوامل المجردة التي تؤكد لهم مدى تغير مجرى الحرب لو مني هتلر بتدمير محاولته وتحطيم أمانيه. وكنا قد انتهينا خلال شهري تموز وآب من السيطرة الجوية على سماء بريطانيا، وكانت قواتنا متفوقة تمامًا وبصورة خاصة في سماء القطاعات الواقعة في الجنوب الشرقي لبلادنا، وأخذت المعدات الدفاعية الدقيقة، والمراكز المنيعة والحصون الشماء وحواجز مكافحة الدبابات، وحواجز الطرق إلى غير ذلك تملأ كل مكان، وتوهجت سواحلنا بالإجراءات الدفاعية والبطاريات كما توفر لدينا عدد من المدمرات العاملة في الأطلنطي مع ما في هذا الإجراء من ثمن باهظ تكبدته قوافلنا التجارية في الأطلنطي، كما شيدنا عددًا آخر منها ليزيد استحكام الدفاع عن السواحل، وقد أحضرنا بارجة التدريب (سنتوريون) وإحدى الطرادات إلى بلايموث، وظل أسطولنا في ذروة قوته، وفي قدرته أن يعمل مع تجنب كثير من الأخطار.

وبهذا كنا على أتم الاستعداد لمواجهة أي شيء، وأخيرًا اقترب موسم الزوابع الاستوائية المعروفة في شهر تشرين الأول، وكان شهر أيلول هو الشهر الذي يتحتم على هتلر أن يوجه فيه ضربته إذا واتته الجرأة الكافية حيث يكون في صالحه ظواهر المد والجزر والقمر في أواسط الشهر المذكور.

وأرى أن الوقت قد حان لأنتقل بالقارئ إلى معسكر الأعداء، حتى أطلعه على مدى استعداداته وخططه، كما وقفنا عليها في هذه الآونة.

obeikandl.com